بحث محكم | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 02 فبراير 2023

الهجرة إلى الكذب: مقاربة أنثروبولوجية

مصطفى البحري
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2023
All rights reserved © 2023

تلخيص:

تهدف هذه الدراسة إلى تحديد المنزع الأنثروبولوجي لخطاب الكذب، من أجل الوصول إلى المنابع الظاهرة والخفية التي تتدفق منها هذه السردية الثقافية التي تتشكل في الفضاء العمومي، حيث يتحول فيه هذا الخيار الأخلاقي المذموم إلى فضيلة وفعل ثقافي محمود يتمتع بمقبولية عالية وسريان ناعم في الجسم الاجتماعي، إذ الذات تنسلخ من حالة الوعي وتنطلق نحو لاشعور مهلك ينبئ بحلول نمط ثقافي مضاد يقوم على أولوية اللاأخلاقي في البناء الاجتماعي، حيث ينسكن الكذب في الوجدان الاجتماعي وكأنه حاجة اجتماعية نعبر من خلالها المجتمع ونسافر في حيثياته اليومية. فظاهر واقعة الكذب سواء في الفضاء الحسي أم الافتراضي يستند إلى إلزاميه أخلاقية، في حين تضمر الذات وهي في حضرة الكذب نفعية على اعتبار أنّ مقياس الفعل الأخلاقي يقاس بمعيار السعادة؛ أي بما يحققه من مصلحة للذات الإنسانية. وعليه، صار خطاب الكذب ظاهريا يصنف ضمن المعضلات الأخلاقية، إلا أنه ضمنيا يمثل مرجعا ثقافياً يكابد من أجل الاعتراف استنادا إلى عاقبته النفعية، خاصة من خلال مضامينه وتأويلاته التي تشجع على المغالطة والمكر وتشكك في جدارة الخطاب الصادق الذي فشل في تحقيق سعادة البشرية.

لذلك سنعسى من خلال هذا البحث إلى استدراج سردية الكذب إلى حضيرة الأنثروبولوجيا من أجل فهم وظائفها الظاهرة والكامنة في الفضاء العمومي من خلال معاينة حضورها في الاجتماعي وتفكيك المنطوق الشفوي والأمثال الشعبية المحفز لفكرة الكذب وكأنه ضرب من الصدق، علاوة على اهتمامنا بدلالات اختيار الكذب وأسباب الهجرة إليه والنزوع نحو مضامينه النفعية.

مقدمة:

نعترف أنّ الكذب سردية ثقافية استوطنت قلب العمومي، وتلبست بالذهنية السائدة على النحو الذي تتحول فيه هذه الممارسة المذمومة إلى فعل ثقافي محمود يتمتع بمقبولية عالية وسريان ناعم في الجسم الاجتماعي، إذ الذات تنسلخ من حالة الوعي وتنطلق نحو لاشعور مهلك ينبئ بحلول نمط ثقافي مضاد يقوم على أولوية اللاأخلاقي في البناء الاجتماعي، حيث ينسكن الكذب في الوجدان الاجتماعي وكأنه حاجة اجتماعية نعبر من خلالها المجتمع، ونسافر في حيثياته اليومية. فهجرة الإنسانية إلى الكذب سواء في الفضاء الحسي أم الافتراضي حتمية على اعتبار أنّ الإنسان المعاصر ممزق وجدانيا واجتماعيا وغير جاهز ثقافيا لفهم ما يجري حوله، لذلك فإن أحقيته في جرعة الكذب ملحّة من أجل ترميم الذات ومخاتلة الأنا والآخرية وتحقيق المصالح والأهداف. فالذات تتلذذ الكذب، وتستمتع بجمالية الأنا وهي تهادن نفسها وتتلاعب بالعمومي والغيرية، حيث الدلالات اللامعيارية تنساب في الفضاء العام وتهدد البناء الاجتماعي القائم. فالكذب استفاد من منتجات العقل والمتخيل التي تستوعب الخطاب الماكر وتعتبره حالة ثقافية مضادة تتوسل الاعتراف والحضور في النسيج الاجتماعي، حيث الثقافة في خدمة الأفعال المذمومة. فبعض السرديات الثقافية قد تحفّز غرائز الكذب وتمحي قواعد العيش المشترك من خلال مضامينها وتأويلاتها التي تشجع على المغالطة، وتشكك في جدارة الخطاب الصادق الذي فشل في تحقيق سعادة البشرية.

لذلك، سنعسى من خلال هذا البحث إلى فهم سردية الكذب من النظرة الاجتماعية والثقافية على اعتبار أننا أمام تشكل ثقافي جديد يستبطن فكرة الكذب وينشئ لها تمثلات وممارسات تضمن حضورها في الفضاء العمومي، حيث الكذب وكأنه ضرب من الصدق.

والأسئلة المركزية التي توجه تحليلنا هي:

كيف يمكن التفكير في الكذب أنثروبولوجيا؟ وماهي تجلياته في الفضاء العمومي الحسي والافتراضي؟ والأهم، كيف استبطنت البشرية فكرة الكذب وكأنه ضرب من الصدق؟

I- التفكير في الكذب أنثروبولوجيا:

إن التفكير في الكذب أنثروبولوجيا يتطلب توظيفاً نظرياً وجهازًا مفهومياً، ليصبح فهمنا للموضوع أكثر وضوحا، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ المفهوم في الأنثروبولوجيا يتداخل ويتشابك والمفاهيم الفلسفية والسوسيولوجية وفي صلة مباشرة بالسياقات الثقافية والاجتماعية والسياسية.

1- في دلالة الكذب:

نستأنس في هذا البحث بتوظيف مفهوم الكذب على اعتبار أنه مفهوم مركزي، نستكشف علاقته بالسرية والكتمان، ونتبين حضوره في الفضاء العام من خلال تجلياته وصلته بالثقافة التي تؤسس له تبريراً ثقافيا ومقبولية واسعة في النسيج الاجتماعي.

1-1- محاولة في تعريف الكذب: أو في العلاقة بين نمط الفعل ونمط التمثل

يتجه تحليلنا بتوظيف مفهوم الكذب في المتروك الثقافي بصفة عامة والاجتماعي بصفة خاصة، فالكذب هو «الإخبار بالشيء على خلاف ما هو عليه سواء كان عمدا أم خطأ»[1]، وقال النووي: «الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو، عمدا كان أو سهواً، سواء كان الإخبار عن ماض أم مستقبل»[2].

وفي الحقيقة، فإن دراسات الكذب في حقل الأنثروبولوجيا محدودة، على اعتبار أننا أمام قيمة اجتماعية تختلف من مجتمع إلى آخر؛ فمؤسسات إنتاج الكذب في تونس تختلف من مكان إلى آخر، فكذب القرية يختلف عن كذب المدينة، إذ يسمح به عفويا في الريف، حيث الشخصية البدوية تستنجد بالكذب تعبيرا عن هامشيتها ومحاولة لكسر حاجز الفقر والخصاصة. أما في المدينة، فيبدو الكذب أكثر مقبولية وسريانا في النسيج الاجتماعي، إذ الذات الحضرية تسبطن الزيف وكأنه ضرب من الصدق، وتتأثر قيمة الكذب في المدينة بالحركية البشرية المطردة وتباعد المسافات. فمعظم النظريات الاجتماعية أهملت الدوافع الشعورية واللاشعورية في تكوين سلوك الكذب الذي يعتبر في الأصل مفهوما «غير ثابت» وضرورة إنسانية، إذ الذات لا تحيا حياة سليمة إلا بالكذب. وسواء كان الكذب قهريا أم مرضيا، فإنه لا يتناسب مع الموقف الواقعي كليا، ومع ذلك فإن حضوره في الفضاء العام صار جليا ومرتبطا بعوامل طبيعية وجغرافية، وعوامل شخصية وعضوية، وعوامل اجتماعية. والحق أن التفاعل بين هذه العوامل الثلاثة يختلف باختلاف نوعية الكذب وتصنيفه بين الوهم والخيال والزيف.

1 مصدر رقمي مأخوذ بتاريخ 2021-12-18 https://mawdoo3.com

2 نفس المصدر الرقمي بتاريخ 2021-12-23

نؤكد أن الذات المعاصرة لجأت للكذب من أجل البقاء وتحقيق لذة مؤقتة تنتشي بها وتتخمر سعادة موهومة، حيث الخيال بتلذذ الزيف والهروب من الواقع المرير. إنها مرحلة الخلاص والانعتاق من بوتقة الشاغل والانغماس في لحظات التوهم والتخيل. فهذا النزوع نحو النمط الثقافي المضاد المعادي للواقع الاجتماعي قد يتعزز بتصورات وتبريرات ثقافية تحاول تأصيل الكذب، وكأنه هوية وفعل ثقافي محمود. فالكذب يجعل الأفراد يتوسلون العبور إلى عالم الأوهام من أجل كسر إحباطاتهم وإخفاقاتهم الاجتماعية، حيث الزيف والمهادنة وكأنها عناوين الحياة المعاصرة.

ويعدّ الكذب في المدونة الإسلامية «بريد الكفر، والنفاق دليله، ومركبه، وسائقه، وقائده، وحليته، ولباسه، ولبه، فمضادة الكذب للإيمان كمضادة الشرك للتوحيد، فلا يجتمع الكذب والإيمان إلا ويطرح أحدهما صاحبه ويستقر موضعه»[3]، في حين ينظر للصدق على أنه «بريد الإيمان، ودليله، ومركبه، وسائقه، وقائده، وحليته، ولباسه، بل هو لبه وروحه»[4]؛ معنى ذلك أن الكذب خطيئة وخصلة من خصال المنافقين وأقرب طريق إلى النار كما يعتقد العديد من المسلمين.

ما يهمنا أن فعل الكذب ضمن سياقات الثقافة السائدة يمثل فعلاً مذموما يعبر عن وجودية سيئة أو مخاتلة، إذ الذات تلقي عن وجهها قناع الصدق وتهادن نفسها والآخرية بعباءة الكذب والتمويه من خلال تضمينات التمويه والزيف التي تتشكل في سرديات لذيذة وحالمة أحيانا، حيث الكذب يلف العالم في حلة الحقيقة ضامنا مقبولية ناعمة وسريانا سلسا في النسيج الاجتماعي. على هذا النحو، يكون الكذب مطلبا عمومياً من أجل خوض تجربة السعادة المؤقتة، وإنقاذ البشرية من التمزقات الاجتماعية والوجدانية وتأهيلها للحلم وكأنه حقيقة. ومن هذا المنطلق، فنحن أمام معضلة إبستمولوجية في تفسير سردية الكذب: هل نلجأ للكذب أم نهاجر طواعية إليه؟ وفي كلتا الحالتين، فعملية الجبر مضمونة على اعتبار أننا إما نهرب من الواقع الاجتماعي مكرهين أو إننا نرحل عنه ملزمين.

1-2- محاولة في الفهم: أوفي اللجوء للكذب أم الهجرة إلى الكذب

إنّ سردية الكذب ليست واقعة ثقافية مستجدة؛ فبعض القبائل العربية لجأت للكذب في انتمائها للقبائل العريقة من أجل تحقيق الاعتراف وتحقيق الفخر، كما أعدت لتعزيز هذا الانتماء شجرة أنساب حتى تضفي صدقية على قولها، وأيضا كان الشاعر حماد الراوية ينسب الكثير من القصائد والأشعار إلى شعراء الجاهلية، مثل امرئ القيس وأمية بن أبي الصلت وغيرهم، لذلك قال عنه المتنبي: «وحماد عند البصريين

3 الكذب، عبد الملك القاسم، دار القاسم، ص. 5

4 نفس المصدر، ص 5

غير ثقة وغير مأمون»[5]. وضمن هذا السياق، يقول الأستاذ طه أحمد إبراهيم في كتابه «النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري» : «إن الكذب في الرواية والتزيد فيها لم يكن من صفات جميع الرواة واللغويين. وإذا كان منهم من كان متزيّدا كاذبا، فقد كان أكثرهم من الثقات الأمناء. وأشهر من عرف بصنع الشعر رجلان: خلف الأحمر من البصريين، وحماد الراوية من الكوفيين، يجيء بعدهما أبو عمرو بن العلاء في شيء يسير جدا. وهؤلاء أفصحوا عن أنفسهم وأفصحت عنهم الحوادث، وعرف العلماء ما كان يقع منهم من الوضع والانتحال»[6]؛ فالكذب هنا جزء من ذاكرتنا العميقة و«نوع من السكن في الأرض»[7]؛ إذ كان يفصح عن جرأته في تبوء مكانة كبرى في الموروث الثقافي، هذا الاحتفاء بجمالية الكذب وهو يكشف الحقيقة تمّ التخلي عنه لصالح حالة ثقافية جديدة لم تعد تراهن على المفاهيم الكبرى كالحماسة والفخر والانتساب للقبيلة، بل انطلقت نحو منطقة ثقافية تراهن على العامي والاعتيادي في الممارسة اليومية، حيث الذات منشغلة بسياق المعيش اليومي، منهكة في زمنية متسارعة. ومن هذا المنطلق، فإن الشخصية المعاصرة ستهاجر للكذب أكثر من اللجوء إليه للتنفيس عن ذاتها والانغماس في عوالم كتومة، حيث لذة العمومي والتخلي عن الميتافيزيقي تتربص بالذات وتدخلها في سعادة مؤقتة على النحو الذي يصبح فيه الكذب قيمة ثقافية مستبطنة تحمل دلالة وتكشف إرباكات وتمزقات الوجدان المعاصر الذي يعيش أزمة في فهم الأنا والآخرية وفي تمثل العالم، حيث الأنا محاطة بهالة من التناقضات والتحيزات الثقافية المتغيرة، ومغمورة بمكبلات معيشية ومعوقات اجتماعية على اعتبار أننا أمام صدمة حضارية خلقت بدائل جديدة جعلت الفرد يصمم على الهجرة إلى الكذب، ولا يستبطن العودة من أجل العيش داخل سرديات جميلة مشبعة باللامعنى الذي يفسر هشاشة الوجود الإنساني، فكأننا أمام مقاومة وممانعة للأرق الذي يتلبس بالبشرية، حيث الكذب وكأنه تعبير عن وجودية مخاتلة، إلا أنها مفيدة جدًّا للتراث الفرداني الذي يطبع الشخصية المعاصرة. **فكل شيء يبدأ بكذبة صغيرة** كما تقول **إليزابيث كاي** في رويتها **سبع أكاذيب»**[8]. فالحقيقة لا تنفع حتى أكثر القصص الخيالية قد تبدو واقعية بالكامل. والأكاذيب القابلة للتصديق ليست بالإنجاز العظيم»[9]؛ فالكذب في النهاية وكما في هذه الرواية قد يتحول إلى غضب ثم إلى جريمة.

نؤكد أن الكذب معضلة أخلاقية ووسيلة تداولية من أجل تحقيق مصلحة على النحو الذي يجعل الفرد يجبر على التمويه والمهادنة للحصول على غاياته، مما يقودنا إلى اختيارية فعل الكذب، حيث خبث الذات وهي تتلاعب بالعمومي وتستخدم سياقات تواصلية زائفة للوصول إلى مقصد السعادة. وسواء أجبرت الذات

5 مصدر رقمي بتاريخ 2021-12-02 https://ar.wikipedia.org/wiki/

6 طه أحمد إبراهيم، النقد الأدبي عند العرب من الجاهلية إلى القرن الرابع الهجري، دار النشر العلمية، بيروت، ص70

7 مقولة مأخوذة عن الشاعر الألماني المشهور فريدريش هولدرلين، مصدر رقمي بتاريخ 2021-12-02 https%3A%2F%2Fwww.star-times.com

8 رواية حديثة ترجمتها نادين نصر وصادرة عن دار التنوير مصر، 2021

9 إليزابيث كاي، سبع أكاذيب، ترجمة نادين نصر، دار التنوير، مصر2021، ص. 192

على الكذب أم إنها مارسته بصفة اختيارية، فإننا أمام خطاب ماكر ومهادن، لكنه أشد رسوخا من الصدق لما يتضمنه من حمولة رمزية ودلالات فائقة تمس المسكوت عنه في القول وتعطي للمهمش مكانة مركزية، لكن مع ذلك، لن نجر أنفسنا في مديح الكذب على اعتبار أننا أمام معضلة أخلاقية تناقض أخلاق الواجب كما حددها **كانط الذي** يعتبر «قول الحقيقة ضروري في أي ظرف، وفي أي ميدان، بما فيها السياسة»[10]. في الواقع، تجاوزت بسالة كانط، انطلاقا من المبادئ القيم الكونية في عدم قبول أي نوع من الكذب، حتى أفكار رجال الدين مثل القديس أوغسطين الذي يميز بين أنواع مقبولة من الكذب وأخرى غير مقبولة أو محرمة [11]. في الواقع رفض **الفيلسوف الفرنسي بنجمان كونستان** (1767-1830) صرامة كانط منطلقا من أنّ عدم وجود الكذب في المجتمع يجعل هذا المجتمع مستحيلا[12].

وأخيرا، وفي علاقة بأخلاق الفضيلة، يعتبر **أرسطو «الكذب في حد ذاته قبيح وملام عليه، بينما الحقيقة شيء جميل وجدير بالثناء[13]»**. أما **ماكنتاير وتايلور**، فيعطيان أهمية كبرى للسياق والتقاليد الاجتماعية لتبرير العمل الأخلاقي، ويتفقان على أن استخدام الكذب يبقى في النهاية غير مقبول عموما؛ لأنه لا يعترف به فضيلة في المجتمع وإن تفشى.[14]

خلاصة القول، إن سردية الكذب هي في الأصل معضلة أخلاقية بين الرفض والقبول، فقد لا يجد الشخص نفسه أمام خيارات متعددة، فينطلق إلى تفضيل إجراء المهادنة من أجل تحقيق السعادة، فالتعبير الأخلاقي النفعي هو الذي استحوذ على الذات المعاصرة وضمن مشروعية سلسة من خلال نتائجه المفيدة التي تزيد من سعادة الإنسانية. فبالنظر إلى نفعية الكذب، يكون الفعل مقبولا من الناحية الأخلاقية، إذ ضمن مصلحة ومنفعة حقيقية. هذا التصور يقودنا بالضرورة إلى تيار **النفعية** الذي «لا يعترف بوجود المعضلة الأخلاقية؛ لأنه يرتب الخيارات بحسب أهمية النتائج»[15]. ما يهمنا إن كان الكذب فعلا اختياريا أو إلزاميا، فإننا نعترف بوجوده في الفضاء العام بوصفه ظاهرة ثقافية استوطنت قلب العمومي وتلبست بالذهنية المعاصرة.

---

10 محمد أوريا، النظريات الأخلاقية المعاصرة واشكالية التطبيق: المعضلة الأخلاقية واتخاذ القرار نموذجا، ضمن مجلة تبين، العدد 36، الدوحة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2021، ص25

11 لمزيد الاطلاع:

Saint Augustin, Sur le mensonge : le menteur aime à mentir et goûte le plaisir de le faire, Suivi de Du maitre (Paris : j'ai lu, 2014).

12 للاطلاع على نص هذه المناظرة في:

Benjamin Constant et Immanuel Kant, Le droit de mentir (Paris : Mille et une nuits, 2003).

13 Aristote, Ethique a Nicomaque, p.2068

14 نفس المرجع ص 26

15 نفس المرجع ص13

II- العبور إلى الكذب في الفضاء العمومي الحسي:

إنّ الكذب شأن اعتيادي، وعامة يحصل باستمرار، وحضوره في الفضاء العمومي الحسي واضح جلي للعيان، إلا أنّ استعمالاته تختلف من شخص لآخر، فثمة من يرتدي جبة الكذب اضطرارا للدفاع عن وضعية ما، وثمة من يتعمد المكر والمداهنة في خطاباته اليومية بغية تحقيق مصلحة ما. لذلك نقترح في هذا العنصر دراسة تجليات الكذب في الفضاء العمومي الحسي ودلالاته الاجتماعية والثقافية.

1- الكذب بما هو فعل اضطراري

نؤكد أن العبور إلى واقعة الكذب بما هو سفر نحو المكر والمعنى الذي ينسكن في وجدان الذات وينصرف نحو سلوكيات لا تحتمل التكميم والإطلاقية، على اعتبار أننا أمام خطاب ثقافي ينسحب على الفردي، ويمتد على الممارسة الجمعية، حيث الأنا والآخرية تنتمي إلى سياق ثقافي موسوم بالغرابة، إذ الذات لم تعد تراهن على حصون المرجعيات الكبرى واللحظات المؤسسة وانزاحت نحو مشهدية اجتماعية تتسم بالقتامة والغموض.

ومن هنا كانت سردية الكذب وكأنها فعل اضطراري من أجل عبور السعادة والخلاص من التمزقات الوجدانية والاجتماعية. فحالة الإرباك النفسي والاجتماعي التي استوطنت الذات المعاصرة في حاجة ملحّة إلى جرعة الكذب من أجل إعادة تنقية البناء المعماري الوجداني للأفراد وتحقيق نوع من الاستقرار النفسي والاجتماعي، وبالتالي الحفاظ على النسق القائم واستمرارية وجوده من خلال العودة إلى سردية الكذب والاستمتاع بجمالية الوهم، وهو يداعب الإنسان ويدخله في حالة السكون والرضاء.

ما يهمنا أننا أمام رحلة سلوكية تنتمي لنمط ثقافي مضاد ومهلك، لكنه يملك مقبولية ومشروعية في النسيج الاجتماعي على اعتبار جدارته في تحقيق البقاء والسعادة. فمثلا لا تأخذ النفعية موقفا معاديا أو مساندا للكذب، لكنها تعتبره مرغوبا فيه إذا حقق سعادة الأكثرية أو قلل من معاناتها. وضمن هذا السياق، يرى الفيلسوف الفرنسي **جون جاك روسو «أن الكذب دون قصد، أو لتجنب الأذى للنفس أو للغير لا يجعل من الإنسان كاذبا»**[16]؛ فمن خلال واقعة الكذب تنتشي الذات وتتلذذ الحلم، حيث التواصل المزعوم بين الواقع المعيش وعالم آخر مرغوب بصفته أكثر إغراء، فيكذب الفرد على نفسه والآخرين حتى يتجاوز الحرمان الاجتماعي، ويتخلص من إحباطات ورغبات غير مشبعة. فكأننا أمام سفر سلوكي من الواقع المرير إلى التخيل والتوهم على اعتبار أن ثقل الوجود لا يمكن مقاومته إلا بحسوة كذب تحقق النفع والفائدة، وتدخل

16 شذى غرابيه، الكذب من أجل البقاء، ندوة علمية: في مديح الكذب، مؤسسة مؤمنون بلا حدود
مصدر رقمي بتاريخ 2022-01-01 https://www.mominoun.com/galleries

الذات في حالة الاطمئنان المؤقت. ومن هنا، لا يمكن النظر إلى واقعة الكذب من خلال النظريات الأخلاقية كالنفعية وأخلاق الواجب، على اعتبار أن الذات المعاصرة صارت تمتهن الكذب وتنشئ له مبررات، فكأننا أمام نشأة مصطلح جديد ينفلت من فلك أخلاق الواجب وأخلاق الفضيلة يمكن أن نسميه «كذب العمومي»، حيث الخيارات اللاواعية واللامسؤولة تحكم السلوك الأخلاقي وتشحذه يقيم المخادعة والمداهنة؛ فالمغزى الاجتماعي لم يعد يولد من خلال السرديات الكبرى كالصدق والوفاء وإنما من خلال تعاليم الفوضى المعيارية على النحو الذي يصبح فيه وافد الكذب في السرديات الثقافية وكأنه نمط ثقافي محبذ ومدعم لاستمرارية النسق الاجتماعي وبقائه. لذا يتمتع الكذب في فضائنا العام بمقبولية عالية؛ لأنه لم يعد يعترف به تحيزا ثقافيا مذموما في المجتمع، ولا أيضا معضلة أخلاقية تحكم العيش المشترك، مع التأكيد أن لباس ثوب الكذب في الفضاء العام مرغوب فيه، على اعتبار أهميته في تحقيق المنفعة والمصلحة. فمعاداة الكذب غير مقبولة خاصة في السياسة وفي كل الميادين، واللجوء للكذب لارتكاب أقل ضرر ودون تهديد للعيش المشترك وقيم الجماعة كالأعراف الديمقراطية، يمكن استساغته وإيجاد شرعية تبرر حضورها في الفضاء العام.

فثقافة الكذب استفادت من منتجات العقل والمتخيل التي تستوعب المهادنة، وتعتبرها حالة ثقافية مضادة تتوسل الاعتراف والحضور في النسيج الاجتماعي، حيث الثقافة في خدمة المعضلة الأخلاقية. فالكذب سياق تواصلي وممارسة سلوكية تقوم على أولوية المخادعة والمهادنة والتلاعب بالعمومي والانفلات من المتخيل الأخروي وقهرية الجماعة من خلال انتهاك القيم المحافظة وتعطيل مسارات أخلاق الواجب والفضيلة، حيث العلاقات المجتمعية المفرغة من المعنى الاجتماعي، والتي تنذر بحلول جغرافية ثقافية جديدة تستمد عتوّها من الممارسات الثقافية الشاذة كالافتراء والزيف واللفق.

هنا تحررت الذات من سلطة الأنا والآخرية وتجاوزت سلطة المقدس والمؤسسات الثقافية، وانخرطت في مساندة الكذب واستخدامه ثقافيا من خلال البلاغة التي تحمل خداعا، ومن خلال عدم الإفصاح عن الحق خدمة لسعادة شخصية أو تلبية لرغبة خفية. ما يعنينا أننا لم نعد نعاين واقعة الكذب على أنها انحراف سلوكي أو تحيز ثقافي بقدر اهتمامنا بهيمنة اللامعنى في الفعل الاجتماعي، ليصبح المعنى بذاته، فالابتداع والموه والافتراء تنبني من خلالها فكرة الإنسان المعاصر. فالباث هنا يحلم ويتوهم، ومع ذلك يؤسس حركة أنثروبولوجية قائمة على نشأة عالم متحرك تقوده الحيرة والثورة على الثابت.

نستدرك بأن سلوك الكذب في الفضاء العام يدنس مركزية الصدق في بناء شخصية الإنسان، مما يشرع للاستهانة بشعور الفرد بالمسؤولية، سواء كانت مسؤولية أخلاقية أم عملية أم اجتماعية. ولأن الكذب تلبس بالذهنية السائدة، فإن حضوره في النسيج الاجتماعي لم يعد يخضع للقاعدة السلوكية العامة، باعتباره مطلبا اجتماعيا تتحقق من خلاله المنفعة، والتي ترتبط بعدة العوامل كالكذب من أجل الدفاع عن النفس أو التفاخر

أو الإنكار، كما يمكن أن يظهر الفرد عداء أو ولاء كاذبا، حتى يضمن منصبا أو مصلحة شخصية. ومن المفيد التذكير بأن مفهوم الكذب لم يعد مشروطا بالصدق، وإنما هو نمط ثقافي مخصوص من أنماط التعقل والتفكير واعتباره كفاءة عرفانية متقدمة استفاد منها الإنسان وحوّلها أحيانا إلى تمثلات تشكلت في منتجات فكرية كالأدب والفن، حيث تصريف هذه الكفاءة العقلية لتعزيز الطبيعي بالمعرفي ضمن سيرورة ثقافية حية.

2- الكذب بما هو اعتراف:

يمثل مفهوم الاعتراف بديلاً نظرياً عن مقاربات الإخضاع والهيمنة بالنظر إلى فاعليته في الحد من التدافع الاجتماعي. وقد طور **أكسال هونيث** من نظرية التواصل لـ**هابرماس** على اعتبار محدوديتها في فهم النزعات والصراعات الاجتماعية؛ «فالعالم المعاش الأولي الخاص بالوجود الإنساني، حسب **هونيث**، هو عالم الاعتراف، لا عالم التفاهم اللغوي، والأولوية للاعتراف لا للتفاهم»[17]. فنحن نرغب في القبول الاجتماعي من خلال الاعتراف بنا، هويتنا، مؤهلاتنا قيمنا، أخلاقنا ...وتبقى عبارات الاعتراف تحاصرنا وتحفّز وجودنا الاجتماعي.

فالحاجة إلى جرعة الاعتراف محتمّة على اعتبار أننا أمام ضرورة وجودية يتحقق من خلالها المعنى، وتتشكل حقيقة الذوات البشرية التي هي في الأصل مجرد ثمرة للاعترافات والإخفاقات التي يصادفها في اليومي.

وعليه، فإنّ إرادة الوجود تستدعي حضور الكذب كتجربة أساسية تدعم تحقيق الهوية والاعتراف. فإذا كانت حاجة الذات للاعتراف مؤكدة، فإننا نؤكد أنّ علاقة الاعتراف بالكذب ضرورية، إذ الذات تستفيد من سردية الكذب لتضمن مكانة اجتماعية معينة، وتحقق مطلب التقدير الاجتماعي.

وضمن المجازفات الأدبية لتحليل كذب الاعتراف، يمكن أن ننطلق من سردية أدبية معروفة ذكرها ياقوت الحموي في كتابه معجم الادباء، إذ قال: «**وحدّثت أنّ الجاحظ[18] قال: نسيت كنيتي ثلاثة أيام، حتى أتيت أهلي، فقلت لهم: بم أكنى؟ فقالوا: بأبي عثمان**»[19]. هنا، نتساءل، هل ينسى الجاحظ كنيته ثلاثة أيام؟ والأهم، لماذا لم يكن النسيان كليا شاملا يفقد فيه الجاحظ ذاكرته وملكة التذكر، بل مجرد نسيان للكنية

17 حسن الخطيبي، نظرية الاعتراف والاحتقار عند أكسيل هونيث، ضمن مجلة المنهاج، العدد 93 و94 بيروت، مركز الغدير للدراسات والنشر والتوزيع، 2019، ص. 87

18 أبو عُثمان عَمْرُو بن بَحر بن مَحْبُوبٌ بن فَزارَة اللَّيْثِيّ الكِنَانِيّ البَصَرِيّ المعروف بالجَاحِظ 159 هـ- 255 هـ أديب عربي كان من كبار أئمة الأدب في العصر العباسي، ولد في البصرة وتوفي فيها. كان ثمة نتوء واضحٌ في حدقتيه فلقب بالحدقي ولكنَّ اللقب الذي التصق به أكثر وبه طارت شهرته في الآفاق هو الجاحظ. عمّر الجاحظ نحو تسعين عامًا وترك كتبًا كثيرة يصعب عدها، وإن كان البيان والتبيين وكتاب الحيوان والبخلاء والمحاسن والأضداد أشهر هذه الكتب، كتب في علم الكلام والأدب والسياسة والتاريخ والأخلاق والنبات والحيوان والصناعة وغيرها.

19 الحمويّ الروميّ، شهاب الدين ياقوت: معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1993، ص. 2101

ولموضع الاسم؟ لعله أراد أن يمازح أهل بيته لإضفاء جو من الحميمية داخل إطار أهله وعشيرته. إنّ الأمر يدعو للحيرة والتساؤل، فنحن إزاء شخصية فريدة تنضح معرفة وعلما. وعليه، نجزم بأنّ الرجل تعمّد نسيان كنيته، بل كذب على أهله بغية معرفة مكانته في حضيرة أهله، والاعتراف به من أجل ترتيب فوضى كامنة في ذاته، وترميم حضوره الوجداني المنكسر.

وهذا يعني أنّ ما حاول الجاحظ باسم عملية النسيان كان محاولة لفهم ذاته عند الآخرين، وبالتالي كسب نوعا من التقدير والاعتراف، مما يعزز فرضية كذب الجاحظ على أهله، فهو يبحث عن حقيقة ذاته وبذلك يبرهن عن وجوده من خلال تصنّع النسيان. فمن المفروض أن هذه الشخصية استنادا إلى قيمتها الأدبية العلمية محصّنة بجرعة الجرأة. إنها متاهة الذات، وهي تبحث عن كينونتها وتكشف عن تمزقاتها الوجدانية والنفسية. ولعل قبح المنظر وبروز العينين سمات ظلت تلاحق الجاحظ وتؤزم وجوده المكتوم، فيتحول النسيان إلى كذب، وتبرز لنا شخصية أدبية تستدعي الفكاهة من أجل فرض ذاتها والاعتراف بها وبقيمتها العلمية. فالنسيان هنا في جوهره كذب وخداع للآخر بغية الحصول على الاعتراف والتقدير الاجتماعي. ولهذا السبب كانت كتابات الجاحظ على اختلاف مواضيعها لا تخلو من الهزل والتهكم، وهي أساليب أدبية اعتمدها كممارسة تعويضية للتعبير عن انكساراته الذاتية والوجدانية.

ما يعنينا، بحث في كذب الذات وهي تستنجد بواقعة النسيان وتحفّزها بأسلوب مزاحي يتوارى خلف كثبان الأسى. إنّ الضحك هنا دلالة عن الكذب، لكنه كذب وبالرغم من مراراته النفسية مبدع ومنتج ومفيد للإنسانية.

والحق، أنّ مفهوم كذب الاعتراف يتجلى خصوصا في عالم السياسة، إذ يعمد الفاعلون السياسيون إلى المكر والمداهنة دون مراعاة للضوابط الأخلاقية، خاصة في سياق خطاباتهم الانتخابية والسياسة فهو مرغوب فيه بالنظر إلى نفعيته على رجل السياسة وأصحاب القرار، فمثلا، **عندما يستخدم رجل السياسة البلاغة Rhétorique لتشجيع العمل الصالح، فإنّ الغاية المنشودة هي المهمة، وليست الوسائل التداولية لتحقيقها. ولأنّ العدالة فوق كل شيء، فإنّ استخدام البلاغة مقبول من الناحية الأخلاقية عند أرسطو، على الرغم من أنّ أسلوبها قد يؤدي إلى نوع من الكذب.**

يمكن أن نضفي شرعية على استخدام الكذب في ممارسة مهنة السياسي، وبحسب فكرة منسوبة إلى **مكيافيلي Machiavelli (1469-1527)**، فيقول: **نرى من التجربة أنّ الأمراء الذين قاموا بأشياء عظيمة في عصرنا، لم يعطوا لكلمتهم أدنى اعتبار، وأنهم تمكنوا من التحايل على عقول الناس بالمكر، وفي النهاية فاقوا أولئك الذين اعتمدوا على الوفاء**[20]، يفضي هذا الطرح إلى اعتقاد استحالة حكم الناس

20 Nicolas Machiavel, Le prince et autres textes (Paris : Gallimard, 1980) p. 107

وتدبير أمورهم من دون خداعهم. فالكذب السياسي تفوق آثاره الإيجابية آثاره السلبية، لذلك يراه بعضهم محموداً بالنظر إلى دوره في الترفيع من الحمولات الرمزية للشخصية السياسية والاعتراف بها وتقدير وجودها الاجتماعي. على هذا الأساس، لم يتوان العديد من الزعماء عن الاستفادة من سردية الكذب قصد تحقيق فوائد ذاتية ومنافع تسدد عمل الفاعلين السياسيين في تطوير قدرتهم على الإقناع وصنع القرار.

وعلى الرغم من استحضار مبدأ المنفعة عند ممارسة الكذب، فإننا أمام معضلة أخلاقية غير مقبولة، فقول الحقيقة ضروري في أي ظرف، وفي أي ميدان، بما فيها السياسة، ولذا، هو مذموم لذاته بالنظر إلى عواقبه الوخيمة في المجتمع أو لأغلبية الناس.

III- الكذب والسرديات الثقافية الناعمة:

إنّ ما يميز الإنسان ويعطيه دلالة وجودية هو قدرته على تمثل الأشياء وتأسيس الرموز وتوظيفها ضمن سياق اجتماعي والثقافي. وقيمة الكذب كسردية ثقافية لا تدرك إلا من خلال استعمالاتها في اليومي، إذ يوظف الإنسان هذا الفعل الاجتماعي في الفضاء العمومي، لإشباع حاجاته الاجتماعية الكامنة والدخول في المبادلات الرمزية والاجتماعية.

من هنا، سيكون علينا ونحن نهتم بالسرديات الثقافية المتصلة بظاهرة الكذب أن نضبط دلالاتها الكامنة وتجليات حضورها في الفضاء الاجتماعي.

1- سردية الكذب والتأسيس لثقافة المنفعة:

نعترف بوجود حالة ثقافية جديدة تلبست بالإنسان المعاصر الذي انطلق نحو تحرير الذات من ثوابت العيش المشترك والانتصار لثقافة المغالطة والمهادنة، إذ الذات تسبطن ذائقة الكذب من خلال الانحناء والخنوع للخطاب الماكر الذي تعزز بسرديات ثقافية ناعمة وسياقات تداولية تحفز فعل الكذب، وتضمن له مشروعية سلسة على النحو الذي يتحول فيه خطاب الكذب إلى خطاب إيجابي يكتسب مقبولية ومشروعية واسعة، إذ يقال: «**الكذب في المصالح جايز**»؛ بمعنى استخدام الكذب لأجل مصلحة أو تحقيق منفعة مقبول، بل محمود. فالكذاب، ثقافيا، فعله مدنس، لكن لمّا يتعلق فعله بمصلحة يصبح مقدسا، فيتحول دنسه إلى قيمة مضافة، ويصبح محل تقديس اجتماعي. فالأفراد يبررون الكذب من أجل المصلحة ويدعمونه أحيانا على اعتبار أن تجربته في الكذب تحمل رمزية الرجولة والمغامرة. فكأننا أمام تحفيز ناعم على ممارسة فعل الكذب وعدم اعتباره رذيلة ومعضلة أخلاقية تهدد رمزية القيم المحافظة وتكسر حصون أخلاق الفضيلة ومبادئ الواجب.

هذا الاندفاع نحو تحقيق المصلحة قد يقود الفرد إلى فعل الكذب لأجل تحقيق حاجاته المادية والمعنوية؛ معنى ذلك أن الكذب في لحظة المنفعة ينفلت من قيمة الصدق، ويصبح كفاءة عرفانية فائقة ومنتجة للسعادة والبقاء الإنساني، فكأننا أمام تمثل راق يزودنا بالمعنى والمغزى الاجتماعي.

فالهشاشة الاجتماعية والنقمة من الذات والمجتمع جعلت من فعل الكذب، وكأنه سمة ثقافية محمودة لا تحمل غرابة وحيرة اجتماعية واستهجانا جماعيا، خاصة وأنّ فكرة الكذب صارت كفاءة اجتماعية يتحقق من خلالها امتيازات متعددة.

وعليه، فإن مقولة «**الكذب في المصالح الجايز**»، باعتبارها موروثا شفويا مشتركا بين جل التونسيين، نزعت عن هذا الخطاب الماكر سمة الوصم الاجتماعي، وبررت حضوره في الفضاء العمومي، إذ تقبل الأفراد ضمنيا من خلال هذه المقولة، استعمال الكذب لبلوغ الغايات بأيسر السبل. فهذه الخلفية الثقافية التي تختزل الكذب معاني المنفعة والمصلحة قد تؤسس لمشروعية ثقافية جديدة تسبطن الكذب وتصبغه مقبولية اجتماعية، حيث المخيال في خدمة النمط الثقافي المضاد المهدد للوجود البشري.

2- الكذب والسرديات المحفزة على الإجرام

والأكيد أن مقولة «**الحبس كذاب**» تمثل تعبيرة ثقافية تخفض من منسوب العقوبة السجنية، وتشرع ضمنيا للممارسة الانحرافية، وتؤسس لفكرة قداسة المدنس، حيث من المفترض أن يكون السجن للمنحرفين والمجرمين والخارجين عن القانون وليس للشرفاء. ومهما يكن، فإن هذا المتروك الشفوي الثقافي يوظف بوجهين مختلفين يمكن تلخيصهما فيما يلي:

وجه تبريري: محاولة وجود مبرر ثقافي يحفز فعل الكذب وينزعه من خانة الوصم الاجتماعي.

وجه تخفيفي: البحث عن تعلة ثقافية من أجل استبطان فعل الكذب وخلق مقبولية خادعة تتنفس بها الذات، وتعبر بها مرحلة التمزقات الوجدانية والاجتماعية.

إننا نؤكد أنّ الخطاب الثقافي، بسبب تبريره لفعل الكذب من خلال سردية «الحبس كذاب» يبدو وكأنه يميل لمصلحة تفسير الأمور الاجتماعية، استنادا لمضمون التراث الشعبي؛ ذلك أنّ هذا التراث يمثل متخيلاً جمعياً صادقاً إلى درجة أنه يضفي صفة الرضاء على الأفعال المذمومة. فما نسميه كذبا يحفزه الموروث الثقافي ويعطيه أولوية، بل يحفزه ويحوله إلى مبدأ ثقافي، إذ الذات دوما في حاجة إلى جرعة الكذب وحلاوة المكر والخداع كي تتمايز وتحقق فائدة. من هذا الاعتبار إذن، لن تتحقق النجاعة والنفعية في العلاقات الاجتماعية، إلا بواسطة الكذب الذي صار شطحة عقلية ثرية يتولد من خلالها المعنى، وميدانا ثريا لكشف

ما ينتجه العقل من صور ذهنية ورموز، الأمر الذي يجعلنا أمام سردية ثقافية ذات مضامين رمزية جوهرية، علاوة على فائدتها النفسية والاجتماعية.

VI- الكذب والشاشة نحو مشروعية ناعمة:

تتلقى الأفراد مضامين الإعلام الجماهيري ومحتويات الزمن التواصلي الجديد بعقليه سلبية وتنزاح بالهجرة إلى عالم الخراب، حيث الفوضى تسكن الذائقة الثقافية الجديدة وتدمرها من خلال ظهور حالة صاعدة من الأفكار والتوجهات التي لا تخضع لمنهجيات ضابطة أو لمضامين اجتماعية هادفة، هذه المشهدية الجديدة استفادت من سردية الكذب، لكي تحقق مقبولية ناعمة وجمهرة كثيفة. لذلك سنشتغل في هذا العنصر بقراءة تجليات الكذب في الفضاء الإعلامي والفضاء العمومي الرقمي، وتتجه غايتنا إلى أن نفهم من زاوية أنثروبولوجية دلالات الكذب في هذه الفضاءات ووظائفه الكامنة بالنظر إلى أهمية حضوره ممارسة وتمثلا.

1- الكذب والاعلام الجماهيري:

يعرّف الإعلام بصورة عامة على أنّه «رسالة فكرية، ذات مضامين متباينة وأهداف متعددة تبعا لتلك المضامين، وهي تستهدف مخاطبة الإنسان عبر وسائل اتصال متنوعة، وإنّ الأطراف الثلاثة المتفاعلة في العملية هي: رجل الإعلام، وسائل الإعلام، الجمهور وهي تتكامل لتؤدي الرسالة الإعلامية»[21]، ويوصف بأنه ثقافيّ «حينما يقدم أو يتيح مضمونا ثقافيا، أو يبث رسالة ثقافية معينة»[22].

من المفترض أن يتأسس الإعلام الجماهيري على مرجعيات اتصالية كبرى يتحقق من خلالها التكامل بين الإعلام والثقافة، إذ تعمل المؤسسات الإعلامية على تنقية الذائقة الفردية والجماعية من خلال المواد الإعلامية التي ترسلها للمتلقي. هذه الإيجابية التي تسكن قلب الإعلام الجماهيري تشققت، وصارت وسائل الإعلام تركّز الخبر في الفضيحة وإثارة الفرجة. وقد ساهمت جاذبية الصورة في تحفيز هذا المنحى الإعلامي، علاوة على التطور المتسارع للحقول التقنية والاتصالية والإعلامية التي ساهمت في إذكاء الزمن التواصلي الجديد، وخفّضت من فاعلية ونجاعة الوسائل السمعية والبصرية.

بهذا التصور، تصبح نظرة المتلقي للمواد التي ترسلها وسائل الجماهيري مسألة ذاتية ومزاجية متصلة بحالته النفسية والاجتماعية؛ فالذوات المعاصرة مكبلة بمشاغل اليومي ومنهكة في تحقيق مصالحها الذاتية؛ لذلك فهي ليست في حاجة إلى صوت إعلامي واع يقدم لها النصح والإرشاد ويدمجها بطريقة ناعمة في

21 هاني رضا ورامز العمار، الرأي العام والإعلام والدعاية، ط1، المؤسسة الجامعية للدارسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1998، ص. 93

22 المرجع السابق، ص. 04

الاجتماعي، بل في حاجة إلى من يخلصها من أعباء السائد والاعتيادي ويدمجها في حضيرة التفاهة. إنها الرغبة في الهروب إلى اللذة والمتعة من أجل تحقيق السعادة المزعومة، هذا التغير البنيوي في الحياة الاجتماعية وفي منظومة الثقافة فرض على الإعلام تغيير استراتيجيته الاتصالية من خلال اعتماده على مواد إعلامية مثيرة وصادمة تشتهي من خلالها ضمان الفرجة وتحقيق المقبولية. والحق أنّ جاذبية الخبر الإعلامي يستوجب جرعة من الكذب بوصفه دلالة ناجعة في استجلاب المتلقي واستمالته نحو مرئيات وسائل الاتصال، فالكذب يبقى خيارا إعلاميا مبجلاً بالنظر إلى فاعليته الجماهرية، وعلى هذا الأساس يدافع الكثير من الإعلامين على شرعنة الخداع والكذب في الميدان الإعلامي؛ لأنه حقق فائدة كبرى وضمن استمرار المؤسسات الإعلامية. وعبر الكذب ينتج مقاولو الإعلام مواد إعلامية متنوعة تتميز بالطرافة وتلقى قبولاً جماهيرياً واسعاً، في حين يفشل الصدق الإعلامي والإعلام الثقافي في تحقيق الفرجة، لعله تحوّل جديد يمس نظم القيم ولا يراعي الضوابط الأخلاقية والخيارات الاجتماعية الواعية والمسؤولة، فيتحول الكذب من معضلة أخلاقية إلى فعل مرغوب فيه، بالنظر إلى نجاحه في تحقيق المنفعة البشرية أو التخفيض من معاناتها.

تتعزز واقعة الكذب في الإعلام الجماهيري بمرئيات لذيذة تستحوذ على ذهنية الفرد وتستدرجها نحو امتصاص هذه المعضلة الأخلاقية، وتقبلها وكأنها تحيز ثقافي محمود، فعلى سبيل المثال نجد في تونس شخصية «**حمد ساطور**»[23] تمارس الكذب وتحتفي به في وسائل الاتصال الجماهيري، والغريب أن هذه الشخصية تتمتع بنسبة مشاهدة كبرى وبمقبولية شاسعة، فكأننا ونحن في حضرة الإعلام الجماهيري ووسائل الاتصال الجديدة نخوض معركة «**الهروب من الحاجة في التفكير في وضعنا التعيس**»[24]. فالكذب هنا يحمل جمالية ويشبع غرائزنا، ويلملم وجودنا المحظور على اعتبار أننا في رحلة سلوكية مع ذواتنا الحقيقية، «**إنه الحلم بتخفيف رهين اللا يقين، واستدامة السعادة بتغيير الأنا، وحلم تغيير الأنا بتغيير أثوابها**»[25].

على هذا الأساس، صارت وسائل الإعلام الجماهيري تستفيد من واقعة الكذب، وتضفي لها شرعية ومقبولية لدى المتلقي، على اعتبار أنها تراهن على الخبر المثير والاستفزازي بقطع النظر عن قيمته المعرفية والإبداعية، على نحو تظهر فيه اتجاهات تواصلية جديدة تنهك البعد الذوقي وتضعفه. ويلاحظ استساغة الإنسان لاستعمالات الكذب في وسائل الإعلام الجماهيري، وهو ما أدى إلى تفشي ظاهرة الكذب وسطوتها في الإعلام السياسي والرياضي إلى درجة أنّ تعاظم اعتماد الكذب في وسائل الإعلام أوقع الإنسان تحت سطوة التافه والسطحي، وهو ما جعلنا أمام استعمال جديد لسردية الكذب. فالناقد الإعلامي يجد

23 شخصية تونسية اكتسحت وسائل الاتصال الجماهيري وأيقونات الفضاء الافتراضي، وتتميز في كونها لا تنطق إلا بالأكاذيب والإشاعات الحصرية.

24 نفس المرجع ص 120

25 **زيجمونت باومونت**، الأزمنة السائلة: العيش في عصر اللايقين، ترجمة حجاج أبو حير، بيروت، المكتبة العربية للبحوث والنشر، 2018، ص. 120

صعوبة في تمثل هذه التجربة الإعلامية، وتقييم سطوتها الجماهيرية على اعتبار أنه يصطدم بمعاني مبهمة وصور غريبة تطحن مرجعيات التنظير الإعلامي، وتستمد بواعثها من ابتذال الخبر وتسطح العلامات. إنه الذاتي والبديهي يتأسس من خلاله المعنى ويؤول بصفة سطحية.

لقد أصبحت الذائقة الراهنة تتقبل كل شيء بقطع النظر عن نجاعته وفاعليته الثقافية والاجتماعية، إذ الذات تذوب في سرديات العالم المضاد (عالم المتعة، بلا تعقيدات ولا يحتمل المباشرة ...). ولقد أفردت شاشات الإعلام الجماهيري منزلة خاصة للتضمينات التافهة، معتبرة إياها قيمة ثقافية ثابتة بالنظر إلى جاذبيتها ومقبوليتها الواسعة. وهنا يشعر الإنسان في حضرة وسائل الاتصال الجماهيري أنه محاط بالتفاهة، وبالتالي مجبر على الدخول فيها على اعتبار أننا أمام «**نظام ساحر بقوة مذهلة، ففي الوقت الذي تعمل فيه على التخلص منه، تجد نفسك غارقا في قيمه**[26]». وضمن هذا السياق، يقول **آلان دونو** في كتابه **نظام التفاهة** «**إنّ النظام التافه يستمرّ في إلقاء ثقله علينا. إن كنا نريد انتقاده بطريقة نُسمع معها خارج دوائرنا الداخلية، سوف نضطر إلى محاولة استخدام لغة هذا النظام، على التلفاز، تحديد**[27]».

2- الكذب في الفضاء العمومي الافتراضي والدلالات الخبيثة:

يحيل الفضاء الافتراضي إلى المجالات التواصليّة الجديدة المرتبطة بشبكة الأنترنيت كالفايسبوك والتوتير واليوتيوب وغيرها، إذ ينغمس الفرد في لحظة تواصليّة جديدة تتسم بالانسياب والحيوية وتخلق «**تفاعلات ثقافيّة واجتماعية وسياسية واقتصادية تُعود بتأثيرات في المجالات الاعتقاديّة والمفاهيمية والمسلكية والمعنويّة في واقع المجتمعات والأفراد**[28]». على هذا النحو، يغوص الإنسان في ترحال وجداني مع صفحات افتراضية أو مجموعات شبكيّة أو مجتمعات محليّة افتراضيّة، مما ييسر انخراطه في سياقات تواصلية جديدة وجذابة دون التقيد بمركز التلقين والتلقي ومرجعية المصدر. فهذه العمومية المطلقة حفزت فعل التفاعل وشققت حصون الحماية الثقافية من خلال كسر قهرية المرجعيات التصورية الكبرى والقيم والمحافظة والانخراط في زمنية الهروب من الواقع والكذب الاجتماعي، إذ الذات تهادن الأنا والآخرية، وترتمي في أحضان الافتراضي خلسة تستمتع بمرئياته الجذابة وتفاعلاته المنسابة مما يشرع لها انتهاك حرمة المقدس والانحناء للمتعة والغرائزية، وبالتالي استحضار المحظور والكامن والمخفي في الذات الإنسانية، حيث خوض تجربة الكذب سرًّا والاستمتاع بجمالية التضمينات الشبكية كالانخراط في سياقات تواصلية لذيذة تحفز الجوانب العاطفية والجنسية، وعلى سبيل المثال يمكن أن يلج الفرد من خلال الافتراضي

26 عبد الكريم عنيات، مراجعة نظام التفاهة لألان دونو، الدوحة، ضمن مجلة تبين، العدد الثامن والثلاثون، خريف 2021، ص 230

27 تبين ص 230

28 حسام شاكر، كيف يضغط الزمن التواصلي الجديد على المجتمعات العربية ؟، ضمن مجلة حضارة، مركز الأمة للدراسات والتطوير، العدد الثاني والعشرون، جويلية 2019، ص 92

إلى المواقع الإباحية أو إقامة علاقات حميمية مع أطراف أخرى. فالإنسانية حين تعاشر الافتراضي تنجر إلى بعض المخاتلات الولوجيّة التي تكشف عن كذب الكل[29] everybody lies كما يقول **سيث ستيفنز دافيتوس**، حيث يعمد الأفراد إلى تأسيس بديل تفاعلي مهادن يذوب من خلاله في مسارات اللذة والمتعة؛ فالأفراد وهم في حضرة الافتراضي لا يرغبون في إثبات الذات وإثارة الجدل وإشعال الجمهرة، وإنما يسعون إلى الانغماس في سياقات المدنس وتفريغ المكبوتات مستمتعين بسرية اللحظة وخلّوها من المراقبة والضبط الاجتماعي، مما يكشف كذب العالم وينزع عنه طهريته خاصة من خلال ولوج بعض الأفراد إلى المواقع الإباحية وتعدد حساباتهم الافتراضية، بما يسمح لهم بممارسة نزاوتهم بطريقة سريّة.

حين تصاحب الذات الفضاء العمومي الافتراضي، وتنخرط في محتوياته الجميلة من صور وإشارات ونصوص مرئية ومجتمعات شبكية، فعندئذ تتمرد على المشروعية والنمطية في بعدها الثقافي والاجتماعي، إذ المتعة في التلاعب بالعمومي وتطويعه لتحقيق النزوات والرغبات الجامحة، حيث الخضوع إلى ثقافة النزوة والغرائزية. فالذات هنا تكذب وتتوهم السعادة على اعتبار أنها مغمورة بزمنية لذيذة ومشحونة باندفاع عاطفي مزعوم، فالكذب هنا دلالاته خبيثة؛ لأنه يستهدف الأنا فيدمر بنيانه الوجداني والاجتماعي، ويهدد قيم العيش المشترك، على اعتبار أننا أمام تحيز ثقافي مدمر للوجود الاجتماعي، وناسف لجبروت المقدس وقهرية الجمعي.

يتخير الأفراد لغة الكذب في الفضاء الافتراضي لدعم أوضاعهم الثقافية، لذلك تميز **ماري دوجلاس** بين «**اللغة المقيدة واللغة التي تدع الناس يفعلون ما يشاؤون**»[30]؛ فالمفردات والصيغ المهادنة متحررة وغير مقيدة، وأحيانا متحيزة للذاتي ومهددة في نفس الوقت لتلاؤمية النسق الاجتماعي؛ معنى ذلك أن التفضيلات الثقافية في حضرة الافتراضي تنزع نحو ثقافة الكذب والافتراء على الأنا والغيرية وتنخرط في مشهدية ثقافة النزوة، حيث التمرد والعبثية والتحيز للذاتي على اعتبار أننا أمام متقبل مجهول ومراقبة ضعيفة. فواقعة الكذب تهب نفسها للافتراضي وتنتشي بسرية اللحظة وخلوها من الضبط الاجتماعي، لكنها في المقابل تكشف خبث الذات، وهي تتلاعب بالعمومي وتضع فيه سمومها المكبوتة أو وجوديتها الكتومة. وسواء كان الكذب يعبر في الزمن التواصلي الجديد عن وجودية مخاتلة أم وجودية سيئة، فإنه يكشف عمق التمزقات الوجدانية والاجتماعية التي تلبست بالذهنية المعاصرة وعدم جاهزيتها لمواجهة الواقع الاجتماعي، وعدم فهمها لما يجري حولها. فكأن الكذب هاهنا تخدير وتنفيس عن الذات وخروج من الاعتيادي واليومي،

29 انظر ما قاله مترجم الكتاب أحمد الأحمري بتصرف: «يكشف سيثستيفز- دافيتوتس في كتابه «الكل يكذب» حقيقة البشر من خلال تحليل الكم الهائل من البيانات التي نتركها لدى استخدامنا للأنترنيت، حيث يؤكد أنّ أكثر أفكارنا حول الناس لا أساس من الصّحة، والسبب؟ أنّ الناس يكذبون على أصدقائهم، وأحبابهم وأطبائهم، وفي الاستبيانات، بل وعلى أنفسهم. ورغم ذلك، لم نعد بحاجة إلى الاعتماد على ما يقولونه لنا فالبيانات الجديدة المستمدّة من الأنترنيت بمثابة اثار من المعلومات التي يُخلفها مليارات البشر على محرّك البحث قوقل، وسائل الاتصال الاجتماعي، ومواقع المواعدة، وحتى المواقع الإباحية .....وأخيرا تنكشف الحقيقة «الكل يكذب».

30 مجموعة من الكتّاب، نظرية المعرفة، (ترجمة الدكتور علي سيد الصاوي)، عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، يوليوز 1997، عدد 223، ص.414.

ففكرة الخلاص قائمة في هذه البيئة الرقمية، حيث ينغمس الإنسان في عوالم غير واقعية متحررا من ضوابط السائد والمرئي. فالرغبة في ممارسة الكذب في العالم الافتراضي تكشف حقيقة الشخصيات التفاعلية التي تحتفي بلحظة الإفلات من الآخر المرئي من خلال إصرارها على ارتكاب المكر، فتفيق ذاتها الكامنة وتعبر عن وجودها المخفي من خلال إصرارها على ارتكاب المدنس وممارسة كل ما هو محرم وممنوع. فالزمن التواصلي الجديد يحمل في مضامينه صورا وشخصيات وتضمينات كاذبة، لكنها مع ذلك جاذبة ولها قدرة فائقة على استقطاب الآخر وانصياعه لمحتوياته اللذيذة.

بمثابة خاتمة: ما ذا جرى؟ من الكتابة في الكذب إلى بديع الكذب في الكلام

بالخلاصة، فنحن نقف اليوم على تشكّل جديد للفضاء العمومي تكفّل باحتواء تعبيرات مهادنة متنوعة غير خاضعة لمعايير الضبط الاجتماعي، لكن مع ذلك فرضت نفسها في الفضاء الحسي والافتراضي، وضمنت مقبولية ناعمة في النسيج الاجتماعي على اعتبار أنها لم تعد تنتمي لخانة المعضلة الأخلاقية، بل تحولت إلى إيتيقا تواصليّة جديدة تتمتع بمشروعية مستفيدة من نجاعتها في تحقيق المنفعة والسعادة.

ونؤكد ونحن نصادف سردية الكذب ضمن هذه القراءة، أننا سقطتنا في مهادنة علمية لطيفة على النحو الذي يتخبط فيه تحليلنا بين السوسيولوجيا التائهة والأنثروبولوجيا البديعة. فنحن هنا نعترف بنجاح البلاغة والتملق في التحليل المعرفي. والدليل على ذلك أن كتابات ليفي ستروس وبالرغم من قيمتها العلمية لم تستهلك مثلما استهلكت منتوجات روني جيرار المعرفية، على اعتبار أن المفكر الثاني راهن على جمالية اللغة والمتخيل وعلى أنثروبولوجيا أدبية فاتنة بقوتها وضعيفة بأساسها. فهذا الأخير لم يشتغل بالميدان، ومع ذلك فاق المجددين والقدامى في علم الأنثروبولوجيا؛ معنى ذلك أن التملق والافتراء على اللغة أحيانا يمهد لك اعتلاء منصب الأولوية في رحاب المعرفة. فعلى سبيل المثال ضمن الشاعر التونسي المنصف المزغني حضوراً إعلامياً ومقبولية اجتماعيه واسعة؛ لأنه لم يراهن على صدقية اللغة وفروضها الصارمة، وإنما استعمل خطابا نثريا مهادنا يستمد مشروعيته من جمالية السطحي والبديهي، فعاش بشعره كريماً، ومات الآخرون وهم فقراء يعانقون لغة الضاد بقلوب يافعة لكنها ممزقة. إنها لعنة الصدق حين تصيب البشر وتنهش ما تبقى من جمالية الذات. فجرعة الكذب محتمة من أجل البقاء والسعادة.

ولعل من نافلة القول التذكير بأننا أمام ولادة مصطلح جديد محكوم بالمهادنة والمغالطة، يمكن أن نصطلح عليه بـ «كذب العمومي»، حيث أولوية الكذب على الصدق، وهو ما يضعنا أمام تساؤل حول هيمنة الخطاب الماكر في الفضاء العمومي؟

قائمة المصادر والمراجع:

- **ابن منظور**، لسان العرب، دار بيروت، 1968، المجلّد 13
- **أحمد زكي بدوي**، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية: إنجليزي فرنسي عربي، الطبعة الأولى، مكتبة لبنان، بيروت.
- **محمد الترسالي**، التغير الاجتماعي بين النظرية والواقع، مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، المغرب 2017
- **خميّس طعم الله**، مناهج البحث وأدواته في العلوم الاجتماعي، مركز النشر الجامعي، الطبعة الأولى، تونس 2004
- **زيجمونت بامونت**، الأزمنة السائلة: العيش في عصر اللايقين، ترجمة حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للبحث والنشر، بيروت 2017
- المجلة العربية لعلم الاجتماع: إضافات، الجمعية العربية لعلم الاجتماع، العدد 46، بيروت 2019
- **عبد الباقي الهرماسي**، الشباب والثقافة والتحولات الاجتماعية، منشورات تبر الزمان، تونس 2005
- **مجموعة من الكتاب**، أعمال الندوة الدولية: راهنية ابن خلدون، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، تونس2008
- **فتحي التريكي ورشيدة التريكي**، فلسفة الحداثة، إنتاج ومنشورات مركز الإنماء القومي، بيروت 1998
- **كمل بومنير**، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهايمر إلى أكسال هونيث، الدار العربية للعلوم، الطبعة الأولى، بيروت 2010
- **مجموعة من الكتّاب**، نظرية الثقافة، ترجمة علي السيد الصاوي، مراجعة الفاروق زكي يونس، سلسلة عالم المعرفة، العدد 223، الكويت 1978
- **هشام جعيط**، الشخصية العربية الإسلامية والمصير المشترك، دار الطليعة، بيروت 1984
- **ويل كيمليشكا**، مدخل إلى الفلسفة السياسية المعاصرة، ترجمة منير كشو، تونس، دار سيناترا للنشر، تونس 2010
- **إمانويل كانط**، نقد العقل المحض، ترجمة غانم هنا، المنظمة العربية للترجمة، بيروت 2013

قائمة المراجع والمصادر باللغة الفرنسية:

- **Beck Ulrich,** la société du risque, 1ère édition 1989, traduit de l'allemande par Laure Bernardi, Paris, Flammarion, 2001
- **Blanc(N) et autre**, le concept de la représentation psychologie, PUF, Paris 2006
- **Claud Levi-strauss**, la pensée sauvage, Plon, Paris, 1962
- **Fichier G.N** (2005), les concepts fondamentaux de la psychologie sociale, 3éme Edition Paris, Dunod
- **GAY, R**, Talcot Persons et la sociologie américaine, PUF, Paris, 1978
- **Georges Balandier,** anthropo- logiques, librairie générale Française, Paris 1985

- **Pierre Bourdieu**, la distinction, critique sociale du jugement, Ed Minuit, Paris1979
- **Pierre Bourdieu**, questions de sociologie, **Cérés** Editions, Tunis 1993

قائمة المواقع الرقميّة:

- https://www.mominoun.com/galleries
- https://ar.wikipedia.org/wiki/
- https://new.massira.jo/content

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2023

جميع الحقوق محفوظة © 2023